

الفصل الرابع عشر

على شاطئ البرزخ

قال الفتى الروميُّ لصاحبه، وهما جالسان على رأس الحصن المشرف على مضيق كليبولي: هل علمت يا لوكاسُ ما أعدَّ العرب من عُدةٍ لحربنا في البر والبحر؟
- ومن أين لي العلم بذلك يا موريس؟ وماذا يُجدي عليَّ أن أعلم، وإني وإياك هنا في وجه الغارة الأولى، ليس معنا قوةٌ تُغني غناءً، أو تدفع بلاءً!
- لقد جاء العرب يا لوكاس في ثمانمائة وألف سفينة، على كل سفينة مائة جندي، وزحفَتْ على البر قوَّاتٌ تفوت الحصر؛ فهل يطمع قومنا في النصر، وليس على فم الخليج إلا بضغُ مئات من الجند في بضعة حصون على الشاطئين؟
- وإنهم يا موريس لعماليق أشدَّاء، وقد تحصَّنوا من الموت بما لا أدري من التمايم؛ فإن الرجل منهم ليخوض المعركة قد حطَّم غمد سيفه، وألقى تُرسه، فما يزال يُخلي الطريق لنفسه بما يُجندِلُ من الأبطال حواليه حتى يبلغ حيث أراد، لا يعنيه حين يبلغ أَسْلِمَتْ نفسه أم جاءه أجله حيث بلغ!
- وإنَّ لهم يا أخي - إلى ذلك - صيحاتٍ مُفزعَةٍ، يهتفون فيها باسم ذلك الشيخ الذي اتخذوا له قبرًا تحت سور القسطنطينية منذ خمسين سنة، فما يزالون يَفْدُون إلى قبره ذاك كلَّ صائفة يتبرَّكون به ويعاهدونه عهدًا ...
- قد كان ذلك القبر شؤمًا علينا منذ ثَوَى فيه شيخهم ذاك، فهم ما يزالون يطرُقوننا من يومئذٍ فيصيبون منا في ذهابهم إليه، وفي عودتهم منه، ولا أدري كيف لم يهدم قيصرُ هذا القبر ويُعَفِّي أثره؛ حتى لا يظلَّ هدفًا يطئون بلادنا في الطريق إليه ذهابًا وجيئةً.